الكتاب الأول

التشخيص

ليس بَينَ الجنون والعقل إلا — خُطوتا سائرٍ فَحاذِر وأمْسِك
أوَّل الخُطْوتين نسيانُك النا — سَ وأما الأخرى فَنسيانُ نَفْسك

العقاد

الفصل الأول

الأغنيات التي كنت أكتبُها[1]

أنا من كنت أُدبِّج الأشعار بحماسٍ بهيج،
أراني اليوم مضطرًّا إلى الشجو الحزين،
انظر كيف تُملي عليَّ ربات الشعر المعذَّبات،
وكيف تَسْتَدر دموعي بغنائها الباكي،
لم تَتَوَرع قطُّ عن مرافقتي في محنتي ولم تتخلَّ عني،
لقد كانت يومًا زينة شبابي الغض،
وما زالت سلواي في الشيخوخة التعسة،
لقد داهَمَتني الشيخوخة على غير انتظار،
وغزا الشيبُ مَفْرقي قبل الأوان،
وارْتَجَف الجلد المُتراخي على الجسد البالي،
ألا ما أهْنَأَ الموت الذي يُمْهِل السعداء في زمنهم الجميل
بينما يُلبِّي دعوة الأشقياء إذ يدعونَه،
ولكن آه له الآن إذ يصمُّ آذانه عن المقهور المعذَّب،

[1] في ترجمة أشعار «عزاء الفلسفة» يقول واطس في مقدمته: «حتى أمير شعرائنا تشوسر قنع بنقلها إلى النثر ولم يسلم مع ذلك من التعثُّر في بعض الأحيان، ولن أطمع في أن أكون أكثر منه توفيقًا» أما كاتب السطور فلا يسعه إلا أن يقول إن ترجمة الشعر إلى الشعر خيانةٌ مضاعفة، وقتلٌ مرتين، وإمعانٌ في التقول والافتراء، وامتهانٌ محرجٌ للروائع.

ويأبى أن يُكَفْكف دموعه السخينة
يوم كان الحظ الغادر يجتبيني ويُغدق عليَّ عطاياه الفارغة
كانت لحظة الحزن تعصِف بي أو تكاد؛
أما الآن وقد اكفَهَرَّ وجهُهُ الخَدَّاع،
فقد راح الزمن الرديءُ يَتَمطَّى ويتطاول بأيامٍ سَمِجةٍ مُملَّة
لماذا تَعُدُّونَني سعيدًا إذن يا أصدقائي؟
فسقوطُ المرءِ دليلٌ على أنه لم يكُن راسخَ القَدَم.

بينما كنت صامتًا أتأمل في نفسي هذه الأفكار، وأُصعِّد هذه الزفرات إذ أدوِّنها بقَلَمي، راعني سمت امرأةٍ جليلة المظهر تقفُ أمامي، عيونها وهَّاجةٌ نافذةٌ بقدرٍ يتجاوز القوة البشرية المعتادة، كانت مثقلةً بالسنين بحيث يتعذَّرُ أن أتصورها من زمننا، غير أنها تتمتع بنضرةٍ وقوةٍ لا ينضب مَعِينُها، أما طولها فَمِن الصعب التيقُّن منه: فتارةً تبدو في حجم البشر العادي، وطورًا تَتَسامَق حتى تطاول عنان السماء برأسها ... رأسها الذي حين ترفعُه ربما تخترق السماء نفسها ويحسُرُ عنها البصر البشري.[٢]

أما رداؤها فمنسوجٌ بمهارةٍ قُصْوى، ذو خيوطٍ غايةٍ في الرقة ومن أفخم خامة (أنبأتْني فيما بعد أنها نَسَجتهُ بيديها)، نالت من بهائه رغم ذلك طبقةٌ تَرِين عليه، كأن من طول الإهمال، أشبه بغبارٍ على التماثيل، على حافته السفلى طُرِّز حرف Pi اليوناني، أما الحافة العليا فرُسِم عليها حرف ثيتا Theta وبين الطرفين سُلمٌ من الدرجات يفرض الارتقاء من الأدنى إلى الأعلى[٣] إلا أن الرداء قد مزَّقته أيدي المغيرين وسَلَبت منه كلُّ يدٍ

---

[٢] لاحظ أن تفاوت السيدة في الطول، شأنها في ذلك شأن آلهة الإغريق، إذ يهبطون إلى النطاق البشري في الأساطير، يحمل مغزًى معينًا: فهي حين تكون بطول البشر العادي تقدم الفلسفة العملية، أما الفلسفة التي تخترق السماء برأسها فهي الفلسفة التأملية الإلهية.

[٣] يشير حرف Pi إلى «البراكسس» Praxis (الحياة العملية)، ويُشير حرف ثيتا إلى «الثيوريا» Theoria (الحياة النظرية أو التأملية)، يقول بوئثيوس في أول تعليقاته على مدخل فرفوريوس إلى مقولات أرسطو: ثمة نوعان من الفلسفة: الفلسفة العملية، والفلسفة النظرية أو التأملية، ويبدأ اسماها بالحرفين Pi وTheta على التوالي، تشمل الأولى الفلسفة الأخلاقية أو علم الأخلاق، وتشمل الثانية الثيولوجيا (الإلهيات) والميتافيزيقا والعلم الطبيعي أو الفيزيقا.

ما أمكنها سلبه من المزق، على كل حال، كانت في يدها اليمنى تحمل كتبًا بينما تحمل في يدها اليسرى صولجانًا.

عندما رَأَت ربات الشعر حول فراشي يملين عليَّ كلماتٍ تُرافِق عَبَراتي استشاطت غضبًا وقالت: «من الذي سمح لهؤلاء البغايا الهستيريات بالاقتراب من فراش هذا المريض؟ فليس لديهن علاجٌ لأوجاعه بل سمومٌ مُحلَّاةٌ تزيدها سوءًا، فهؤلاء من يطمسن ثمرات العقل بأشواك العاطفة العقيمة، ويُوطِّن عقول الناس على الكرب بدلًا من أن يحرِّرنهم منه، فلو أن من توقعن في حبائلكن، كدأبكن دائمًا، هو رجلٌ من سواد الناس، لما كنت أعبأ بذلك فما كان ليضيرني شيئًا، أما هذا الرجل فقد نشأ على دراسة الإيليين والأكاديميين،[٤] إنما أنتن سيرينات[٥] تُهلكن من يَقَع في غوايتكن، اغْرُبن إذن واتركنهُ لربات الفلسفة ترعاه وتُداويه.»

استَخْزَت ربات الشعر بهذا التوبيخ، وخَرَجن مُطَأْطئات الرءوس تَنُم حمرة خدودهن على شعورهن بالخزي والعار.[٦]

---

[٤] الإيليون هم أصحاب المدرسة الإيلية في الفلسفة اليونانية، وكان مقرهم بلدة إيليا في جنوب إيطاليا، وأهم ممثليها: أكزينوفان، بارمنيدس، وزينون الإيلي.

أما الأكاديميون فينسبون إلى «الأكاديمية» وهي المدرسة التي أسسها أفلاطون في أثينا حوالي عام ٣٨٧ق.م، وكان أهم تلامذتها أرسطو، وسبيسيبوس ابن أخت أفلاطون والذي خلفه في رئاسة الأكاديمية بعد وفاته، وأكزينوقراطس، ويودوكسس، وثياتيتوس الأثيني.

[٥] السيرينات Sirens في الميثولوجيا اليونانية هي مخلوقات شريرة كانت تعيش في جزيرةٍ صخرية، وتغني بأصواتٍ جميلة لكي تُغوي البحارة حتى تتحطم سفنهم ويهلكوا، وقد ورد في الأوديسية أن أوديسيوس أَمَرَ بحارته بأن يسدوا آذانهم حتى يتفادوا أغنية السيرينات المُهلكة.

[٦] من الغريب حقًّا أن تُقدم «الفلسفة» على طرد ربات الشعر بينما تتحدث هي نفسها شعرًا! ومن الغريب أن يورد بوئثيوس هذا المشهد في عملٍ نصفُه شعرٌ صريح ونصفه الآخر نثرٌ يقطر شعرًا! وهو موقفٌ يضعنا في حيرة كالتي وضعنا فيها أفلاطون من قبل، إذ طرد الشعراء من مدينته الفاضلة واعتبرهم خطرًا عليها، بينما هو نفسه أقرب الفلاسفة إلى المزاج الشعري، فقد حفلت كتابات أفلاطون بالمجاز والخيال الفني والصور الشعرية الحية، واستخدم الأساطير ذات الطابع الشعري في شرح المسائل الفلسفية الكبرى، بل جعل من واحدة من محاوراته الكبرى، «طيماوس»، أسطورة واحدة متصلة، ونادى بتطبيق معايير أخلاقية ومنطقية وميتافيزيقية صارمة في الحكم على الفن، وهي معايير لو طُبِّقت على عملٍ مثل «طيماوس» أو «المأدبة» لكان أفلاطون نفسه هو أول المطرودين من جمهوريته الفاضلة!

كانت الدموع تُغشي على بصري فلم أستطع أن أميز مَن تكون هذه السيدة المهيبة المحتكمة، كل ما استطعتُ فعله أن شَخَصت إلى الأرض صامتًا أترقَّب ماذا سيحدث بَعد، اقتربت السيدة وجلست على الطرف المقابل من فراشي وجعلَت تتأمل بعينيها وجهي المنكَّس المثقل بالحزن، ثم أنشأت تتلو الأبيات التالية عن اضطراب فكري.

الفصل الثاني

«الفلسفة» تلتفت إلى المؤلف

وا أسفاه، ها هو العقل يهوي إلى حضيض اليأس،
والبصر تلفُّه العتمة،
عندما تُضخِّم عواصف الحياة من وزن هموم الدنيا،
ينسى العقل نوره الباطن، ويؤخذ بالظلام الخارجي،
هذا الرجل كان يومًا طليقًا متجهًا إلى السماء بخشوعٍ وولوع،
يتأمل الشمس القرمزية والصفاء البارد للقمر،
كان فلكيًّا يعكف على متابعة الكواكب في أفلاكها،
هذا الرجل كان يَنْشد معرفة مصدر العواصف التي تعزِفُ وتثير البحار؛
الروح التي تحرك العالم،
السبب الذي يجعل الشمس تنتقل من الشرق المُشعِّ إلى الغرب المائي،
كان ينشُد معرفة السبب الذي يجعل ساعات الربيع معتدلةً تَزِين الأرض
بالزهور، ومَن الذي يفعم الخريف بالعناقيد المكتنزة عند اكتمال العام،
ها هو العقل الذي كان يبحثُ ويستكشف أسرار الطبيعة الخفية،
يَرزَح في قلب الظلام،
عنقه مكبَّلٌ بالأغلال الثقيلة،
مرغمًا تحت وطأتها أن يتأمل التراب الحقير.

ومضت تقول: «غير أن الوقت وقت علاجٍ لا وقت شكوى»، ثم حدَّقت بملء عينيها قائلةً: «ألست أنت مَن أرضعته يومًا من لَبَني وأطعمته من طعامي إلى أن بلغ أشدَّه؟ لقد منحتُك أسلحةً كفيلةً بأن تحميك وتَذُود عنك ولكنك ألقيت بها بعيدًا؟ ألا تعرفني؟ لماذا

أنت صامت؟ هل أصمتك الخجل أم أسكتك الذهول؟ كنت أودُّ أن يكون الخجل، ولكن الذهول فيما أرى هو الذي يَتَملَّكك.»

عندما وَجَدتني صامتًا، بل مبلسًا غير قادرٍ على النطق، وضعت يدها برفقٍ على صدري وقالت: «لا خطر، إنه يعاني من شيءٍ من النسيان، ذلك المرض الشائع في العقول الضالة، لقد نسي نفسه برهةً وسوف يتذكَّرُها بسهولةٍ إذا ما تَعرَّف عليَّ، ولكي أمهِّد له ذلك سأُبدِّد بعضًا من ضباب الهموم الدنيوية التي تغشِّي على عينيه.»

قالت ذلك ثم جمعت طرف ردائها وجفَّفت عينيَّ المُغرورقتين.

الفصل الثالث

«الفلسفة» تقبل التحدي

ثم انجلى الليل وتبدَّد الظلام،
وعادت إلى عيني حدَّتهما السالفة،
مثلما حين تهُبُّ ريحُ الغرب العاتية
تملأ السماءَ السحبُ السوداءُ والظلامُ العاصف،
وتحتجبُ الشمسُ قبل الوقتِ الذي ينبغي أن تتلألأَ فيه النجوم،
ويلفُّ الليلُ الأرضَ كلَّها،
ولكن إذا انطلقت ريحُ الشمال من كهفها الطراقي،
وجَعَلت تجلدُ الظلام بسوطها وتحرِّر النهارَ السجين،
فإن الشمس تتألق بفيضٍ مفاجئ من النور،
وتَبْهَر الأعينَ الطارِفة بأشعتها.

بنفس الطريقة تَبَدَّدت غيوم حزني وابتَهجت بالضياء، والتفَتُّ أتملَّى وجه طبيبتي وقد عاد إليَّ صوابي، وثبتُّ عيني عليها، فعرفت فيها مُربِّيتي التي نشأت في بيتها منذ شبابي — الفلسفة. وسألتها لماذا هبطت من عليائها إلى منفاي الموحش، «ألِكَي يتَّهموكِ ظلمًا مثلما اتَّهموني؟!»

ردَّت السيدة: «كيف أتخلى عنك يا ولدي؟ وكيف لا أقاسمك عناءك الذي تحمَّلته بسببي وبسبب كراهية الناس لاسمي؟ أتحسبني أخشى الاتهام أو أرتعد فرقًا كما لو كان جديدًا عليَّ؟ وهل هذه هي المرة الأولى التي تتعرَّض فيها الحكمة للخطر وتتهدَّدها قوى الشر؟ فقديمًا أيضًا، قبل عهد خادمي أفلاطون، كم خضت في معارك كبيرةٍ ضد قُوَى الغباء الطائشة، ثم في حياة أفلاطون انتصر أستاذه سقراطُ على الموت الظالم بوقوفي إلى جانبه، وبعدها بذلت جموعُ الأبيقوريِّين[١] والرواقيين[٢] وغيرهم كل ما بوسعهم لكي يقبضوا على ميراث الحكمة الذي تركه لهم، حاول كلٌّ منهم أن ينتزعني بالقوة كجزءٍ من غنيمته، ولكني كافحت وقاومت، وخلال ذلك تمزق ردائي الذي نسجته بيدي، لقد انتزعوا نُتَفًا من الرداء وذهبوا يباهون بأنهم استحوذوا على الفلسفة كلها، وإذ احتفظوا بمزقٍ من ثيابي فقد أسبغ عليهم ذلك شهرةً بين الجهال بأنهم أهلي وذويَّ، ومن ثم فإن كثيرًا منهم قد أضلته جهالة الجموع الحمقى.[٣]

وحتى إذا كنت لم تسمع بقصص الفلاسفة الأجانب (أي من غير الرومان): كيف نُفِيَ أنكساجوراس Anaxagoras[٤] من أثينا، وكيف أُعدِم سقراط Socrates بالسم،

[١] الأبيقوريون هم أتباع أبيقور Epicurus (342–271B.C)، وهو فيلسوف أثيني شهير ذهب إلى أن اللذة هي الهدف الطبيعي والخير الأسمى للإنسان، وعرَّف اللذة على أنها حالةٌ من الاستقلال والسلام العقلي والجسدي، وعرَّف الفلسفة على أنها محاولة بلوغ السعادة عن طريق التأمل وإعمال العقل.

[٢] الرواقية Stoicism مدرسةٌ فلسفيةٌ أسسها زينون حوالي عام ٣٠٠ق.م وكان يحاضر في «الرواق المزخرف» Stoa Poikile وهو ممرٌّ مسقوف ومصبوغ بألوان متعددة، ومن هنا جاء اسم «الرواقية»، استمرت الرواقية زهاء خمسة قرون، وخلال هذه المدة طرأت على تعاليمها تغيراتٌ كبيرة، غير أن ما يجمع الحركة كلَّها هو تعاليمُها الأخلاقية التي تؤكد على الشجاعة في مواجهة الألم والخطر، وعدم الاكتراث بالأوضاع المادية، وقوة التحمل والنزاهة والسكينة والسلام النفسي تحت كل الظروف، وقد مرت الرواقية بثلاث مراحل أساسية: المرحلة المبكرة وتشمل مؤسسها زينون وخريسيبوس وكليانثس، والمرحلة الوسطى وتشمل بانايتيوس ويوسيرونيوس، والمرحلة المتأخرة وهي مرحلة رومانية تضم أسماء لامعة مثل سينيكا وإبيكتيتوس والإمبراطور ماركوس أوريليوس.

[٣] من الواضح أنَّ بوئثيوس يعلي من قَدْر الثالوث الفلسفي: سقراط وأفلاطون وأرسطو، ويجعل للأبقوريين والرواقيين موضعًا هامشيًّا.

[٤] أنكساجوراس (الكلازوميني) Anaxagoras (500–428B.C) من أوائل الفلاسفة الذين استقروا في أثينا، قُدِّم للمحاكمة بتهمة الفساد والخيانة، ولكنه تمكَّن من الهرب بمساعدة أصدقائه.

وكيف عُذِّب زينون Zeno[٥] فما أظنك تجهل (قصص فلاسفة الرومان) كانيوس Canius[٦] وسينيكا Seneca[٧] وسورانوس Soranus[٨] وذكراهم ما تزال جديدةً مدوِّية، فما أودى بهم سوى أنهم إذ نُشِّئوا على تعاليمي فقد بدوا ناشزين عن أخلاقيات الطَّغام مستخفين بها، لا عجب أن تتقاذفنا العواصف الهوج في بحر الحياة هذا ما دام هَمُّنا الأكبر هو أن نُغضب الأشرار، ورغم كثرتهم العددية الهائلة فإن بوسعنا أن نزدَريهم؛ لأنهم لا هاديَ لهم، إنما يحدوهم الجهل فيخبِطون خَبط عشواء، فإذا عنَّ لهم أن يجدوا في حملتهم علينا فإن قائدنا، العقل، يسحب قواته إلى قلعته تاركًا هؤلاء منشغلين بجمع أتفه الغنائم، هنالك يمكننا أن نُطِلَّ عليهم من أعلى حصننا المنيع، سالمين من غارتهم ضاحكين من حماقتهم.»[٩]

---

[٥] زينون (الإيلي) فيلسوفٌ يوناني وُلد عام ٤٩٠ق.م، تلميذ بارمنيدس وصديقه، من ممثلي المدرسة الإيلية، وهو واحد من ثلاثة فلاسفة رَوَى ديوجينيس لا إرتيوس (أو اللاإررتي) أن كلًّا منهم عضَّ لسانه وبصقه في وجه الطاغية (وهو، في حالة زينون، الطاغية نيارخوس الذي جعل يعذب زينون لكي يعترف)، وقد أُعدِم زينون بعد ذلك سحقًا في هاون.

[٦] لعله الفيلسوف الرواقي يوليوس كانوس الذي حكم عليه كاليجولا بالموت، وذكره سينيكا كنموذجٍ للسكينة الفلسفية.

[٧] سينيكا Seneca خطيبٌ وأديبٌ وتراجيدي وفيلسوف روماني رواقي شهير، وُلد بقرطبة في السنة الرابعة قبل الميلاد، تقلد منصب بريتور وعُهد إليه بتربية الطاغية نيرون وأصبح مستشارًا له بعد ذلك، أجبر على الانتحار بأمر نيرون عام ٦٥م.

[٨] سورانوس Soranus روماني بارز على عهد نيرون، كان واليًا على آسيا، اتصف بالعدل والنشاط، توفي منتحرًا أيضًا بأمر نيرون.

[٩] القلعة هنا ترمز إلى الفضيلة، والغنائم ترمز إلى متاع الدنيا وحُطامها ومختلف الخيرات الخارجية الزائفة.

الفصل الرابع

مكائد السياسة

من وطَّن نفسه على الحياة الهادئة مصطلحًا مع قدره،
ووضع الموت المتغطرس تحت قدميه؛
فإن بوسعه أن ينظر إلى حدثان الدهر في وجهه،
وألا يُؤخذ بنعيمه ولا بؤسه،
رابط الجأش لا يُزعزعه غضب البحر،
يمخض أمواجًا من عمق أعماقه،
ولا يُزلزله أتون بركان فيزوفيوس الهائج
يتفجَّر بالحمم ويقذف باللهب،
ولا تروعه الصواعق الحارقة تنطلق فتُدمِّر الأبراج السامقة.
لماذا إذن ينخذلُ كثيرٌ من البؤساء أمامَ غضب الطغاة العجزة؟
لو أنكم تُخلِّصون أنفسكم أولًا من الأمل والخوف؛
تكونون قد أَمِنتم غضب الطاغية.
أما الذي يرتجف خوفًا أو أملًا،
ويفقد الثباتَ والسيطرة؛
فإنه يكون قد ألقَى عنه دِرعه، واقتُلع من مكانه،
وأوثق بنفسه الأغلال التي سوف يُزج بها.

سألَتني: «هل تعي ما أقول؟ هل تَنفُذ كلماتي إلى عقلك؟ أو تراني أصرخ في وادٍ؟[1] لماذا تبكي؟ ولماذا تفيض عيناك؟ يقول هومر: «أفضِ بدخيلتك ولا تكتمها في نفسك.» إذا كنت تبتغي عون الطبيب فلا بدَّ من أن تَكشِف عن الجُرح.»

فاستجمعتُ قواي وأجَبت: ألا ترَين أن لسان حالي يُغني عن مقالي، وينطق بقسوة القضاء الذي نزل بي؟ ألا يؤثِّر فيكِ مجرد النظر إلى هذا المكان؟ أين منه مكتبتي التي اتخذتِها لنفسك في بيتي مستراحًا وموئلًا، تلازمينني فيها وتشرحين لي جميع أمور الفلسفة، الإنسانية والإلهية، أكان هذا هو حالي يوم كنتُ أبحث معكِ أسرار الطبيعة، وتعلِّمينني مسارات النجوم وترسمينها لي بعصاك، وتصوغين أخلاقي وحياتي كلَّها على مثال النظام السماوي؟ أهذا جزاء امتثالي لك؟ ألستِ أنت من أسَّس هذا الرأي على لسان أفلاطون: إن الدول السعيدة هي التي يحكمها الفلاسفة،[2] أو التي يَدْرُس حكامها الفلسفة؟ وأشرت على لسان الرجل العظيم نفسه بأن هذا سببٌ يُلزم الحكماء بمزاولة السياسة؛ حتى لا تُترَك دفة الحكم لأيدي الأشرار والمجرمين فيُلحقون الدمار والخراب بالمواطنين الصالحين؟

وعلى هذا الأساس قرَّرتُ أن أطبِّق في السياسة العامة ما تعلَّمته منك في خلوة الدرس. تشهدين أنت ويشهد الله الذي غرسك في عقول الحكماء أنه ما دفعني إلى تقلُّد أي منصبٍ سوى حرصي على الصالح العام. وهكذا نشبت النزاعات المُستحكِمة بيني

---

[1] حرفيًّا: «أم أنت مثل الحمار في المثل الشعبي … أصم للقيثار؟» وهو مثلٌ شعبي إغريقي يشير إلى أولئك الذين لا يُصغون إلى النصح أفضل مما يصغي الحمار إلى القيثار.

[2] في محاورة «الجمهورية»، الكتاب السادس، يُبيِّن أفلاطون أن الفيلسوف هو الذي يَصلح للحكم، ذلك أننا إذا أردنا اختيار من يتولى حراسة شيءٍ ما فلن نتردد في الاختيار بين شخص أعمى وشخص حاد البصر، فالفيلسوف هو أشد الناس حرصًا على معرفة الماهيات الثابتة وتأمُّل النماذج الكاملة للحقيقة قبل الشروع في تطبيق مبادئ الحق والعدل والشرف والخير على القوانين الدنيوية، والفيلسوف محب للحق وكاره للزيف، ويسعى إلى العلم بكلِّ طاقته فيقلُّ انغماسه في أي شيء آخر، ويكون معتدلًا لا يستبد به الجشع ولا تُهمه الأمور التي يسعى الناس من أجلها إلى المال والسلطان وينفقونه بسخاء عليها. والفيلسوف تتجه نفسه الكبيرة دائمًا إلى إدراك مجموع الأشياء الإنسانية والإلهية معًا، ويحيط فكره بالزمان في كليته والوجود في مجموعه، فيستصغر الحياة الدنيوية ولا يخاف من الموت. والفيلسوف باعتداله وترفُّعه عن الجشع والوضاعة والغرور والجبن هو بالتأكيد شخصٌ لن يكون من الصعب التعامل معه ولن يكون ظالمًا (انظر «الجمهورية»، الكتاب السادس ٤٨٤–٤٨٦).

وبين الأشرار، وأثار عليَّ حبي للعدل سُخط الحكام، ولم أُبال بسخطهم لعلمي أنني أرضيت ضميري الحر، كم وقفتُ في وجه كونيجاست Conigast[٣] وهو يهم بأن يغتصب مالَ مستضعفٍ، وردَعت تريجويلا Triguilla، مراقب القصر، عن ظلمٍ أتاه أو كاد يأتيه، وكم تدخلت بسلطتي لأحمي المعذَّبين حين يلاحقهم ما لا يُحصى من التهم الباطلة من جانب البرابرة الجشعين الذين لا مُحاسب لهم ولا رادع.

لم أَمِل قط عن العدل إلى الظلم تحت أي ضغط، لم يكن ألمي أقلَّ من ألم الفلاحين أنفسهم حين أرى أملاكهم تُنْهب والضرائب تُثقل كاهلهم، وحين حلَّت ذات يومٍ مجاعةٌ شديدة وفُرض على الفلاحين بإقليم كامبانيا بيعت محاصيلهم، بالظلم والاعتساف، بيعًا يبخسُهم حقهم ويسحق إقليمهم فقرًا؛ فقد تصديت يومئذٍ للقاضي الروماني من أجل الصالح العام، وعلى الرغم من أن الملك كان على علمٍ بما أفعله فقد نجحتُ في إيقاف البيع.

وباولينوس Paulinus، القنصل السابق، الذي كان كلاب البلاط قد التهموا ممتلكاته بطمعهم وجشعهم، فانتزعته من بين فكوكهم. وقنصلٌ سابقٌ آخر، ألبينوس Albinus، خلَّصته من عقابٍ كان ينتظره لتهمةٍ ملفقةٍ، وعرَّضت نفسي في ذلك لكراهية المدعي العام كيبريانوي Cyprian ألا ترين أنني قد جلبت على نفسي كثيرًا من العداوات والضغائن؟ غير أني كنت جديرًا بحماية الباقين الذين ساعدتهم، فأنا لم أدَّخر وسعًا في خدمة رجال البلاط بدافع حبي للعدل، ومن ثم كنت حقيقًا بدعمٍ أكبر من جانبهم.

أوَتَدرين من هم الوشاة الذين قضوا عليَّ؟ أحدهم هو باسيليوس Basilius الذي طُرد يومًا من خدمة الملك، ودفعَته الديون إلى أن يَشِي بي، أما أوبيليو Opilio وجاودينتيوس Gaudentius فقد حَكَم الملك عليهما بالنفي بسبب جرائمهما العديدة، فلجآ إلى المعابد، وعندما علم الملك بذلك أعلن أنهما إذا لم يُغادرا المدينة إلى رافينا Ravenna في الموعد المحدد فسوف يُطردان منها بعد أن يُوسما بميسم العار على جبهتيهما، وليس ثمة من عقابٍ أنكى من ذلك، غير أنهما في ذلك اليوم نفسه وشَيا بي واتهماني وقُبل اتهامُهما، تراني كنت أستحق هذه المعاملة؟ أو هل هذه الإدانة المبيَّتة لي تجعل مَن اتهموني على حق؟ ألا يستخزي القدر، إن لم يكن من الافتراء على البراءة فعلى الأقل من دناءة المفترين؟

أوَتَدرين ما هي خلاصة التهمة الموجهة إليَّ؟ لقد اتهموني بمحاولة حماية مجلس الشيوخ، أتَعلَمين كيف؟ قالوا إنني حُلت بين المدَّعي وبين تقديم أسانيد تُثبت خيانة

[٣] وزير قوطي من وزراء تيودوريك.

المجلس، فما ظنك يا سيدتي؟ هل عليَّ أن أنكر التهمة حتى لا أكون عارًا عليك؟ لكني حقًّا كنت أرغب في حماية المجلس وما أزال، هل عليَّ أن أعترف؟ ولكن محاولتي منع المدعي لم تستمر، أهو جرمٌ أنني رغبت في سلامة المجلس؟ لقد جعلوه جرمًا على كل حالٍ بحكمهم عليَّ. الطيش قد يخدع نفسَه ولكنه لا يمكن أن يغير القيمة الحقيقية للأشياء، وما كان لي أن أتنكَّر لمبدأ سقراط فأَخفي الحقيقة وأصدِّق على الكذب، غير أني أترك لك وللحكماء تقييم هذه الأحداث التي حَرَصت على تدوينها للتاريخ، حتى لا تفوت الأجيال القادمة معرفة التسلسل الحقيقي للأحداث.[٤]

أما عن الرسائل المزوَّرة التي نسبوها إليَّ واتخذوها دليلًا على أني أَمَلت في تحرير روما فماذا أقول بشأنها؟! لقد كان بوسعي إظهار تزييفها للملأ لو كان أُتِيح لي تفنيد أدلة الوشاة أنفسهم؛ لأن اعترافهم إذَّاك يكون سيدَ الأدلة، ولكن لا حيلةَ لي الآن في ذلك، آه لو كانت لي، لقد كنت إذن قمينًا أن أرُدَّ كما رد كانيوس Canius على الإمبراطور كاليجولا Caligula عندما اتهمه بالتستر على مؤامرةٍ ضده: «لو كنت أدري بها لما دَرَيت أنت.»

لم يذهب بي الحزن في كل ذلك بحيث أبتئس لهجمات الأشرار الآثمة ضد الأخيار، غير أني أعجب لكونهم يحققون ما يأملون؛ فالرغبات الشريرة قد تكون جزءًا من الضعف البشري، أما أن يُتاح لكلِّ شرير أن ينال غرضه من البريء على مرأى من الله ومسمعٍ فهذا ما يبدو لي بشعًا كل البشاعة، لعل هذا ما حدا بواحدٍ من أتباعك لأن يسأل: «إذا كان الله موجودًا فمن أين يأتي الشر؟ وإذا لم يكن هناك إلهٌ فمِن أين يأتي الخير؟!»[٥]

ولقد كان يهون الأمر لو أن الأشرار المتعطشين لدماء كل الخيِّرين وكل المجلس قد أرادوا لي الموت أيضًا عندما رأوني أنافح عن الخير وعن المجلس، أما أن يشترك أعضاء المجلس أنفسهم في الفَعْلة نفسها فذلك ما لم أكن أستحقُّه على الإطلاق.

ولعلك تذكرين ما حدث في فيرونا، فقد كنت دائمًا حاضرةً تُرشدينني في أقوالي وأفعالي، عندما أراد الملك، الراغب في القضاء على المجلس برمَّته، أن يمُدَّ تهمة الخيانة الموجَّهة إلى ألبينوس لتشمل أعضاء المجلس جميعًا وهم منها براء، تَذْكُرين كيف دافعت عنهم مستهينًا بأي خطرٍ شخصي، وتعرفين أنني أقول الصدق ولا أتباهى بأي فضيلةٍ لي،

---

[٤] لسوء الحظ أن هذا التقرير، إن كان قد أُتم على الإطلاق، مفقودٌ ولا وجود له الآن.

[٥] يبدو أن الفيلسوف المقصود هنا هو أبيقور.

ذلك أنه بقدر ما يتلقى امرؤٌ من الصيت كأجرٍ على مَكرُمةٍ أتاها ... يفقدُ الضمير المنغمس في الرضا الذاتي شيئًا من فضيلته الخفية.[٦]

وها أنت ترين أي منقلبٍ حاق ببراءتي: فبدلًا من أن أثاب على الفضيلة الحقيقية أعاقب على جريمةٍ لم أقترفها، فهل وجد قط أي اعترافٍ صريحٍ بأي فعلة مثل هذا الإجماع على أقسى العقوبة فلا يخفف منها النظر إلى الضعف البشري أو إلى تقلُّب مقادير بني الفناء؟ فحتى لو أنني اتهمت بإحراق المعابد المقدسة أو قتل الكهنة بسيفٍ أثيمٍ أو بتدبير مذبحةٍ لأهل الخير قاطبة، لقد كنتُ حقيقًا على الأقل بأن أمثل للمحاكمة فأعترف أو أُدان قبل أن أعاقب، ولكن ها أنا أبعد خمسمائة ميلٍ لا أملكُ قولًا أو دفاعًا، وقد حُكم عليَّ لجريمةٍ لا تستحق أن يُدان عليها أحد!

وحتى أولئك الذين أبلغوا عني لم يخف عليهم ما تتحلَّى به هذه الفعلة من شرفٍ فسعوا إلى تلطيخها بتهمةٍ أخرى، فادَّعوا، زورًا وبهتانًا، أنني اخْتَنْت ضميري ولجأت إلى وسائل غير شريفة طمعًا في منصب، ولكنك، أيتها المقيمة في عقر الروح، قد طردت من قلبي كلَّ مطمعٍ في حطام الدنيا، بل لم تتركي فيه مكانًا لمطمع، وما زلت تهمسين في مسامعي كل يومٍ بذلك المبدأ الفيثاغوري «اتَّبع طريق الله.» وما كان لي أن أستعين بأحط النفوس وقد سموت بي إلى أعلى المدارج لأكون على صورة الله.

ثم إن حياتي الأسرية التي لا تشوبها شائبةٌ، وصلاتي بأرفع الأصدقاء قدرًا، إلى جانب مصاهرتي لسيماخوس Symmachus التقيِّ الوَرع الذي يُضارعك وقارًا، كلُّ أولئك جديرٌ بأن ينأى بي عن أي شبهةٍ في مثل هذه الجريمة.

---

[٦] يقول الشاعر العربي ابن الرومي في معنى قريب:

ليس الكريمُ الذي يُعطي عطيَّته ... على الثناء وإن أغلى به الثمنا
بل الكريمُ الذي يُعطي عطيَّته ... لغير شيءٍ سوى استحسانه الحسنا

ويقول المعري:

ولتفعل النفسُ الجميلَ لأنه ... خيرٌ وأفضل لا لأجل ثوابها

والأدهى من ذلك أنهم يدَّعون أنك أنت التي دفعتني إلى الإثم، من حيث إنني مُتَشَربٌ بتعاليمك مُتمرسٌ بأخلاقياتك، وهو عندهم دليلٌ على أنني قد اقترفت ما اقترقت! فلم يكف إذن أن توقيري لك لم يَعُد عليَّ بنفعٍ، بل إنك أنت نفسك صرت محطَّ الكراهية عوضًا عني، وفوق كل ذلك فقد أنقض ظهري ثقلٌ آخر هو أن الناس لا تحكم على الأفعال وفقًا لمناقبها الخاصة بل وفقًا لما ينتج عنها بالمصادفة، فيكون الفعل في نظرهم حصيفًا ما دام الحظ حليفه، أما من لم يحالفه الحظ فلا نصيب له من رضا الناس.

وإنه لمن المضجر أن أتذكَّر ما يدور بين الناس من شائعاتٍ وما يتناجون به من آراءٍ شديدة التباين والاختلاف، وبحسبي أن أقول إن هذا هو العبء الأخير الذي يلقيه القدر القاسي على كاهلنا: فحيثما ألصقت تهمةٌ بتعساء الحظ ظن الناس أنهم كانوا يستحقون كل ما ينزل بهم، وهكذا كان العقاب جزاء إحساني، فجُرِّدت من أملاكي ومن مناصبي وشوِّهَت سمعتي إلى الأبد.

لكأنِّي أرى الآن أوكار المجرمين الآثمين تضج بالفرح والابتهاج، وأرى أشد الناس يأسًا وخذلانًا يستهدف لمزيد من التهم الباطلة، لكأني أرى الصالحين من الناس يرزحون خوفًا مما يتهدَّدهم بعد الذي حاق بي، بينما يجترئ كل الأوغاد الخاسئين على التهتك والانفلات وهم بمأمنٍ من العقاب، بل وهم طامعون في المَثُوبة على ما جنت أيديهم، لكأني أرى الطاهرين قد حرموا من الأمن والسلام، بل حرموا حتى من كل فرصةٍ للدفاع عن أنفسهم.

الفصل الخامس

اضطرابه الانفعالي[١]

يا خالق السموات المرصعة بالنجوم
أيها الجالس على عرشك الأبدي،
تدير السماء دورانًا رشيقًا،
وتعنو الأنجم لسُنَّتك،
بأمرك يسطع القمر تارةً بدرًا متكملًا،
إذ يستقبل ضوء أخيه.[٢]
فتخبو له الأنجم الضئيلة
وطورًا يحول محاقًا،
ويفقدُ كل ضيائه المستعار
وأنت تحدو نجم المساء
باردًا جليًّا في الهزيع الأول من الليل،
ثم يُبدِّل أعنته ويكون نجم الصباح
ثم يشحب أمام ضياء الشمس الجديدة،
عندما يجرِّد الشتاء البارد الأشجارَ من أوراقها
فأنت تقصِّر أمد النهار،

[١] بحلول القرن التاسع الميلادي كانت هذه القصيدة تراثًا موسيقيًّا يُغنَّى ويُنشد.

[٢] أي الشمس، وهي مذكَّرٌ في اللاتينية، سواء كلفظ sol أو كإله (أبولو/فويبوس)، أما القمر فهو مؤنث في اللاتينية سواء كلفظ lune أو كإلهة — أخت فويبوس Luna/Phoebe.

وحين يُقبل الصيف بلهيبه
تمنحُ الليل الساعات الأسرع،
بقدرتك تُنظِّم مواسم العام،
فالأوراق التي انتزعها ريح الشمال في الشتاء
يرُدُّها النسيم الغربي في الربيع،
والبذور التي رعاها الشتاء
تُنضِجُها حرارة الصيف غلالًا يانعة،
وما من شيءٍ إلا يُلبِّي شرعتك الأزلية،
ويؤدي مهمته بانضباط
كل شيءٍ أنت تحكمه بضوابط صارمة
إلا أفعالَ البشر،
فقد استَنْكَفْت، كمُهيمنٍ، أن تُقيِّدها بقيود،
وإلا فلماذا يتقلب القضاء بهذا العنف ويُغَير الأحوال بهذا النحو؟
فإذا بالعقاب المؤلم الحقيق بالمجرمين يهوي على رءوس الأبرياء
الآثمون يتربعون على العروش العالية،
ويدوسون، يا للوضعِ المقلوب! على رقاب الصالحين
الفضيلةُ الوضَّاءة تتوارَى في الظلال المعتمة،
العادل يحمل وِزْرَ الظالم
العقابُ لا يَطال الحانثين باليمين المُزيِّنين الكذبَ بزُخرفِ القول،
الذين يستخدمون هذه المهارة كلَّما دَعَتهم نزوتهم،
ويَزدهيهم أنهم يخضِعون لها الملوك أولي البأس
الذين يبسطون سلطانهم ويفرضون هيبتهم على جحافل البشر،
أنتَ يا من تُمسِك بزمام كلِّ شيء
انظر من فوق إلى بؤس الأرض،
فالبشر ليسوا جزءًا هينًا من هذا العمل العظيم،
البشر تتقاذفهم أمواج القضاء،

أوقف، أيها الهادي، الطوفان الجارف،
ومثلما تُوثق السماءَ اللانهائية بوَثاقٍ يحكمها
أوْثق أصقاعَ الأرضِ وثبِّتها بوثاقٍ مثله.

بينما كنت أنفث هذه الحسرات الطويلة، بقِيَت الفلسفةُ هادئةً لم يَطرِف لها جفنٌ ولم تتأثر بشكواي، ولما انتهيت نظرت إليَّ بهدوء وقالت: «عندما رأيتك حزينًا دامعًا أنبأني لسان حالك أنك معذبٌ منفيٌّ، ولكن ما كان لي أن أعلم كم لك في المنفى لولا أن كشفت لي ذلك في ثنايا قولك، غير أنك في حقيقة الأمر لم تنف بعيدًا عن وطنك، بل أنت الذي ضللت بعيدًا عنه بنفسك! أو إن شئت أن تَعُد نفسك منفيًّا فأنت الذي نفيتَ نفسَك! فلا أحد غيرَك على الإطلاق يمكنه أن يكون قد فعل ذلك، ذلك أنك لو تذكُرُ وطنك الحقيقي الذي جئت منه فإنه ليس محكومًا بالأغلبية مثل أثينا القديمة، بل إنه، على حد قول هوميروس، «واحدٌ سيده، واحدٌ ملكه»، واحدٌ يروقه أن يكثر رعاياه لا أن ينفوا، واحدٌ ... أن تعنو لعنانه وتُذعن لسلطانه وتنحني لعدالته هو أعلى مراتب الحرية.

يبدو أنك نسيت القانون الأقدم لبلدك: إنه حقٌّ مقدسٌ لكل فردٍ اختار الإقامة فيه ألا يُنفَى منه أبدًا، ومِن ثَمَّ فلا وجه للخوف من النفي داخل أسواره وحِماه، ولكن أيُّما فردٍ يرغب عن العيش فيه يكون بنفس الدرجة قد فقد استحقاقه أن يكون هناك؛ لذا فإن هذا المكان لا يزعجني بقدر ما يزعجني منظرك، ولا ما أبحث عنه هو جدران مكتبتك المزينة بالزجاج والعاج، بل أبحث عن كرسي عقلك! ذلك هو المكان الذي أودعتُ فيه يومًا، لا كتبي، بل الشيء الذي يجعل للكتب قيمةً ... الفلسفة التي تحتويها الكتب، الأفكار التي تكنزها.

أما ما ذكرته عن خدماتك للصالح العام فما أقلَّه بالقياس إلى ما قدَّمته حقًّا من جلائل الأعمال، وأما حديثك عن التُّهم المنسوبة إليك، سواء عن حق أو عن باطل، فقد سجَّلت فيه ما هو معروفٌ جيدًا، وأما عن جرائم الوشاة وأكاذيبهم الدنيئة فقد أصبت إذ مَرَرت عليها في عجالةٍ ما دامت تتردَّد على أفواه العامة أكثر إسهابًا وتفصيلًا، ولقد انتقدت بعنفٍ وقوةٍ جحود المجلس وظلمه، وتحدَّثت بأسى عن التهم التي طالت شخصي وذرفت الدموع للتشويه الذي نال سمعتي، وأخيرًا صَبَبت جامَ غضبك على القدر وشكوت مُرَّ الشكوى من أنه لا يُقدِّم الجزاء العادل بقدر الاستحقاق، وفي شعرك الختامي الغاضب دَعَوت مع ربات الشعر أن يكون السلامُ الذي يحكم السماء حاكمًا على الأرض أيضًا.

ولكن ما دمت الآن مضطربًا تعصف بك شتى الانفعالات، من حزنٍ وغضبٍ وكرب، وتذهب بك كل مذهب، فليس الآن وقت العلاجات القوية، بل دعني أستخدم أدويةً ألطف في البداية، كأني ألين بها ما تورم وصلب من أثر هذه الانفعالات المزعجة فتؤهِّله لتلقِّي الدواء الأشد قوة.»

الفصل السادس

التشخيص

إذا ما أهلَّ برج السرطان يَسْفَعُ الحقولَ
بأشعة الشمس القاسية،
فإن من يَبذر قمحه آنذاك في الحقول العقيمة،
ستخونه إلهة الحصاد وتُخلِف وعدها له،
وسيلجأ إلى ثمار البلُّوط ليأكل،
عندما يُروَّع الحقل برياح الشمال القارسة
لا تَقصد بِساط الغابة القاتمَ لِتجمع البنفسج،
ولا تَنْشد بيدٍ متلهفةٍ أن تقطف أعنابك في مايو
إذا شِئت أن تَنْعَم بمذاق العنب،
فإنما يهب باكخوس (ديونيسوس) عطاياه في مُقتبل الخريف،
فلقد حدَّد الله المواسمَ
وهيَّأ لكل موسمٍ عَمَله الخاص،
ولا تَملك قوةٌ أن تُفسد النظام الذي قدَّره
وهكذا؛ لأن طريق العصيان والعَسْف يحيد عن الصراط السوي،
فإن مآله الفشل والوبال.

«إذن دعني أولًا أتفحَّص حالتك النفسية وأختبرها ببضعة أسئلةٍ بسيطةٍ؛ لَعَلِّي بذلك أقف على أفضل طريقةٍ لعلاجك.»

فأجبتُها: «سَلي ما شئت، وسوف أُجيب.»

قالت: «هل ترى أن هذا العالم تُسيِّره المصادفة والأحداث العشوائية، أو تعتقد أنه ينطوي على مبدأ عقليٍّ ما؟»

قلت: «حاشاي أن أعتقد أن أحداثًا على هذا الاطراد المنتظم يمكن أن تكون وليدة المصادفة والاتفاق، إنما أؤمن أن الله الخالق يسهر على خلقه، ولا أراني أحيدُ يومًا عن هذا الاعتقاد ما حييتُ.»

قالت: «هذا حق، بل هو بعينه ما كنت تشدو به للتو عندما كنتَ تتحسَّر على أن بني البشر وحدهم من لا تشملهم عناية الإله، إن اعتقادك لراسخٌ بأن كل شيءٍ آخر محكومٌ بالعقل، وإنني لأعجب كيف يصيبُك المرض مع هذا الرأي السليم، ولكن دَعني أمضي بالفحص إلى ما هو أعمق، إنني ليَغْلبني حسٌّ بأن ثمة شيئًا مفقودًا بشكل ما، قل لي إذن: ما دمت لا تشك البتة في أن الله يحكم العالم، فما هي، في رأيك، المبادئ التي يُسيِّر بها العالم؟»

قلتُ: «لا يسعُني أن أجيب عن سؤالك لأنني لا أتبيَّن معناه.»

قالت: «لقد صدق ظني إذن أن هناك شيئًا مفقودًا، أن ثمة ثلمًا في دِرعك نَفَذ منه هذا المرض المُخبِّل إلى روحك، أخبرني إذن هل تذكر ما هي غاية الأشياء جميعًا، وما الهدف الذي تتجه إليه الطبيعة بأسرها؟»

قلت: «كنتُ أعرفها جيدًا، ولكن ذاكرتي كليلةٌ من الحزن.»

ف: «ولكن ألا تعرف من أين أتت الأشياءُ جميعًا؟»

ب: «بلى، من الله.»

ف: «فهل يجوز أن تعرف الأصل وتجهل الغاية؟ على أن هذه الاضطرابات إن قويت على تشتيت المرء بتغيير موقعه فإنها لا تقوى على أن تنتزعه كليًّا من نفسه وتقتلعه من جذوره، ولكن أودُّ أيضًا أن تجيبني عن سؤالٍ آخر: هل تذكُرُ أنك إنسان؟»

ب: «ولم لا أذكر؟!»

ف: «أيمكنك إذن أن تُنبئني ما هو الإنسان؟»

ب: «أتقصدين الحيوان العاقل أو الأخلاقي؟ أعرف بالتأكيد، وأقرُّ أنني لَكذلك.»

ف: «أواثقٌ أنت أنك لست أكثر من ذلك؟»

ب: «واثقٌ تمامًا.»

ف: «الآن عرفت سبب مرضك، أو السبب الرئيس لمرضك، لقد نسيت ما أنت؛ لذا فقد وقفت على مرضك من كل جوانبه، وعلى المدخل إلى استرداد صحتك، فلأنك سادرٌ في نسيانك فقد رحت تتحسر أيضًا على أنك منفيٌّ ومجردٌ من ممتلكاتك، ولأنك لم تَعُد تعرف ما هي بالضبط غاية الأشياء، فقد حسبت أن التافهين والمجرمين أقوياء وسعداء، ولأنك نسيت ما هي الطرائق التي تُسَيِّر العالم فقد ظننت أن ضربات الحظ تتخبط هنا وهناك بغير ضابط، تلك أشياء لا تفضي إلى المرض وحده، بل إلى الموت أيضًا.

ولكن من لطف الله أنك لم تهجُركَ طبيعتُكَ كلُّها، فما تزال لدينا الشرارة الكبرى لشفائك، وهي رأيك الصائب عن إدارة الكون، فأنت تؤمن أن الكون لا تحكمُه المصادفة العَشواءُ بل العقل الإلهي، إذن لا تخش شيئًا، فمن هذه الشرارة الضئيلة سوف ينبثق فيك وهج الحياة.

ولكن لأن وقت الدواء الأقوى لم يحن بعد، ولأن من طبيعة العقل أنه مقابل كل فكرةٍ صحيحةٍ يفقدها يكتسبُ فكرةً زائفةً تنفثُ ضباب الوهم ليُغشِّي على بصيرته الصحيحة، فسوف أحاول أن أبدد هذا الضباب شيئًا فشيئًا باستخدام علاجات خفيفةٍ ومتوسطة القوة، فإذا ما تبدد ظلام الانفعالات المضلِّلة سيكون بوسعِك إذَّاك أن تُبصر أَلَقَ الحقيقة.»

الفصل السابع

النجوم المغيَّبة في الغيوم

النجوم المغَيَّبة في الغيوم السوداء
لا يمكنُ أن تُرِيق نورًا،
حين تَهيج ريح الشمال العاصفة أمواجَ البحر،
فإن سطحه الذي كان للتو ساجيًا رائقًا كالبللور
يتعكَّر ويغيم، فلا ينفُذُ فيه البصر،
والمجرى الذي يحيد،
ويساقط من أعالي الجبل،
كثيرًا ما يتعثَّر في صخرةٍ تعترضه
اقتُطعت من جلاميد الجبل نفسه،
وأنت أيضًا، إذا شئت أن ترى الحقيقة
في ضياءٍ صافٍ،
فَسِر على المحجَّة
الطريق المطروق،
واطرد الفرح
واطرد الخوف
واطرد الأمل،
واطرد الحزن
فالعقل يتعكَّر،
ويرسف في الأغلال
إذا بَسَطت هذه الضلالات سلطانها.